

الفصل الرابع

السلوك الجماعي

Collective Behavior

تمهيد

يُعرف ملغرام وتوك (Milgram and Tock, 1969) السلوك الجماعي بأنه سلوك غير منظم ينشأ تلقائياً، ولا تكون له خطة تحكم مساره فيصعب التنبؤ بتطوراته، وهو يعتمد على التأثير المتبادل بين الأفراد المشاركون فيه". وكما سنرى بعد قليل هناك عدد كبير من الظواهر الممثلة للسلوك الجماعي، ولكننا سوف نركز اهتماماً على نوعين منها في هذا الفصل، هما: الجموع المحشدة Crowds والغواغاء Mobs. ونهدف في هذا الفصل إلى مراجعة البحوث المستفيضة حول هذا الموضوع، ومناقشة التفسيرات المطروحة بشأنه.

أنواع السلوك الجماعي

إذا اعتمدنا تعريف ملغرام وتوك المشار إليه في أعلاه فإننا نستطيع أن نميز عدداً من الظواهر الممثلة لهذا الصنف من السلوك، ويتضمن الإيضاح رقم (٤-١) وصفاً لبعض هذه الظواهر.

إيضاح رقم (٤-١): بعض الأمثلة على السلوك الجماعي الذعر Panic: ويتتمثل في سلوك جماعي من الناس يعتقدون أن خطراً داهماً يهددهم فيهرعون هاربين منفلتين. وقد يشكل الهرب المنفلت نفسه خطراً على الجميع. ولا يعد سلوك الجمع المذكور سلوكاً غير عقلاني تماماً لأن كلاً منهم يسعى إلى الهرب من التهديد المذرك، ولكن الفعل غير المنضبط والاستجابة الناجمة عن العدوى الانفعالية تُسْبِغ على الهلع مسحة غير عقلانية.

البدعة Fad: شكل سطحي (أو سخيف) من أشكال التحوير في الكلام أو الزينة أو السلوك تدوم طويلاً. ولعل أحد الأمثلة على البدعة انتشار لعبة صبيانية انتشاراً واسعاً شارك فيه فئات عديدة من الناس ولكن هذه الممارسة لا تدوم طويلاً.

الموضة Fashion: وهي مشابهة للبدعة غير أنها أقل سطحية وأبسطاً في التغيير حيث تدوم لفترات ليست بالقصيرة وقد تعود بعد فترة من الزمن، فنجد أن موضات طول الشعر للرجال مثلًا تتراوح بين الطول والقصر من وقت لآخر، وكذلك فساتين النساء.

الصرعة Craze: إذا كان الهمج هو هروب من شيء مخيف فالصرعة تمثل اندفاعاً نحو شيء ممتع. وتختلف الصرعة عن البدعة في أنها تستحوذ على اتباعها استحواذاً شديداً (من صور البوكيمون وكل ما يتعلق به في الوقت الحاضر والتي تستحوذ على اهتمام الأطفال في مختلف أنحاء العالم).

الدعائية Propaganda: وتشمل جميع الجهد المبذولة لإقناع الناس بوجهة نظر معينة حول قضية ما. والفرق بين التربية والدعائية هو أن التربية تعمد إلى تنمية القدرة على اتخاذ القرارات العقلانية، بينما تسعى الدعائية إلى إقناع الناس لتقبل أفكار جاهزة دون تمحيق.

رأي العام Public Opinion: يمكن أن يُعرَف الرأي العام على أنه رأي يحمله عديد من الأفراد، أو على أنه الرأي السائد بين أفراد مجتمع معين، حيث يركز التعريف على تعددية الآراء في المجتمع الواحد ويركز التعريف الثاني على إجماع المجتمع على وجهة نظر معينة.

حركات الاجتماعية Social Movements: تمثل الحركة الاجتماعية في تجمعت من لأفراد يُسمّى بشيء من الديمومة يحاول إحداث تغيير اجتماعي معين، أو مقاومة تغيير ما فيه مجتمع الذي ينتمي إليه الأفراد، مثل حركة تحرير المرأة.

ثورة Revolution: تغيير كامل ومجاهي في نظام اجتماعي ما يُسمّى بالعنف في الغالب تتمد هذه التعريفات على: Terner and Killian, 1957; Smelser, 1963; Horton, 19th (and Hunt, 19th

وهناك نوعان من السلوك الجماعي مما يمكن إدراجه ضمن القائمة الـ مواردة أعلاه سنقوم بتناولهما بشيء من التفصيل نظراً للأهمية الخاصة التي أسبغت عليهما في البحوث النفسية الاجتماعية وهم: الجموع المحشّبة (crowds) والغوّاء (mobs)، وسنتناول فيما يلي الجوانب النفسية فيهما.

الجموع والغوّاء

يمكن تعريف الجموع على أنه مجموعة من الناس تشارك في الاهتمام بقضية ما (Young, 1946). ونستطيع التمييز بين عدة أنواع من الجموع (Brown, 1965)؛ فهناك الجموع العرضية (casual groups) مثلاً وهي جموع لا يعرف أعضاؤها بعضهم بعضاً إلا نادراً، وتفتقر إلى التنظيم في غالب الأحيان، وفي الأجواء القلقة والمتوتّرة، قد تنقلب الجموع العرضية إلى جموع فاعلة (acting crowds) أو غوّاء. ويعرف سلزنيك وبروم (Selznick and Broom, 1977) الغوّاء بأنها: جموع "تستهدف القيام بأعمال عدوانية مثل تخريب الممتلكات أو إشعال النار فيها أو نهبها. ولا تتجه الغوّاء إلى الأعمال العدوانية عشوائياً بل أنها تتجه في الغالب نحو هدف محدد". ويتضمن الإيضاح رقم (٤-٤) وصفاً لمثالين من الأفعال البشعة للغوّاء.

إيضاح رقم (٤-٤): سلوك الغوّاء

ابتكر الكولونيال لينش أثناء الثورة الأميركيّة ضدّ بريطانيا محكمة شعبية موغلة في البربرية، هدفها التصدي لمن يعارض الثورة. وبالرغم من أن هذه المحكمة لم تصدر أحكاماً بالإعدام إلا أن اسم لينش أخذ يطلق حالياً على عمليات الإعدام دون محاكمة. وفيما يلي وصف لحالتين من حالات الإعدام هذه كانت الضحيتان فيهما شخصين من الأقلية السوداء الخاضعة للاضطهاد آنذاك.

المعالجات النظرية للسلوك الجماعي

يحل تيرنر وكillian (Turner and Killian, 1972) السلوك الجماعي من منطلقات نظرية مختلفة لعل أهمها ثلات، هي: نظريات العدوى (contagion theories)، ونظريات التقارب (convergence theories)، ونظريات المعايير المنبقة (emergent norm theories).

نظريات العدوى

تعتبر نظرية غوستاف لوبيون (LeBon, 1879) من أوائل النظريات في السلوك الجماعي. وقد عرض لوبيون نظريته هذه في كتابه "الجماع: دراسة في العقل الشعبي"، حيث يقول فيه: "قد يكون الإنسان الفرد إنساناً متقدماً ومتحضرأً ولكنه وسط الجموع يصبح ببررياً". ويرى لوبيون أن سلوك الجموع ما هو إلا "استجابة لا عقلانية لإغراءات الموقف الذي تجد الجماعة نفسها فيه"، وكان السؤال الرئيسي الذي شغل لوبيون هو لماذا تتصرف الجموع بطرق لا يقبل بها أعضاؤها منفردين وتتنافي إلى حد كبير مع معاييرهم الشخصية؟ وقد ميز لوبيون عدداً من العمليات النفسية التي تأخذ مجريها عند تشكيل الجموع وتأثير على سلوك الفرد فيها، وهي: تقبل الإيحاء (suggestibility) والعدوى الاجتماعية (social contagion)، وانقطاع الصلة الشخصية (impersonality)، ومجهولية الاسم (anonymity). وسوف نتحدث عن العمليات الثلاث الأولى باختصار، أما العملية الرابعة فسوف نتوسع في معالجتها لأنها تحظى بالكثير من الدراسة والتحليل.

تقابل الإيحاء Suggestability

سرعان ما تتفشى الفوضى في الجموع في غياب القيادة، وفي غياب أنماط محددة من السلوك يمكن لأعضاء الجماعة اللجوء إليها للتعامل مع الموقف. وفي

Lang and Lang, 1961) تصرّف وفق ما يُوحى إليها به، هذه الحالة تسارع الجموع إلى التصرف وفق ما يُوحى إليها به، (conscious personality) الشخصية الوعائية (1961). ويعتقد لوبيون أن الشخصية الوعائية (conscious personality) هي المعاصرة لـ "اللاوعي الجماعي" توجيه السلوك. ومع أن معظم علماء النفس المعاصرين لا يتفقون مع هذا الرأي، إلا أن فرويد قال إن وجودنا في جمع من الناس يسّر لأنماط السلوك التي تكتب في العادة بالانطلاق من عقولها. ويعتقد فرويد بأن نخضع للقوى المسيطرة سواء تجسدت في السلطات أو في الجماعات نتيجة لعلاقة السيطرة التي عشناها مع آبائنا والتي طورت لدينا حاجة إلى الخضوع. وفي حين يرى البعض أن هناك مبالغة في تقدير الدور الذي يُنسب إلى الإيحاء في دفعه للخضوع لأصحاب السلطة (Couch, 1968)، إلا أن الإيحاء يلعب بلا شك دوراً هاماً في خلق الإشاعة والتي تمثل مظهراً هاماً من مظاهر السلوك الجماعي كما يشير الإيضاح رقم (٤-٣) أدناه.

إيضاح رقم (٤-٣): الإشاعة

يعتقد شيبوتاني (Shibutani, 1966) أن ارتفاع مستوى الإيحاء يجعل الإشاعات أمراً مهماً في المواقف التي تسودها الإنارة الجمعية. وتُعرَّف الإشاعة بأنها خبر غير مؤكّد وغير كاذب بالضرورة، ينتقل شفهياً في الغالب في موقف يسوده القلق والتوتر، وتنشر الإشاعات عندما يكون الموقف غامضاً وتكون هناك حاجة إلى معلومات بشأنه ولا يتسنى للناس الحصول عليها من القنوات الموثوقة. وتنتقل الإشاعات بسرعة من شخص لآخر، وفي هذا النقل يتغيّر مضمونها ويتشوه، لأن الإشاعات غالباً ما تتلون بالعواطف. ونظراً لضيق الإدراك الناجم عن الموقف المشحون عاطفياً فإن الإشاعة قد تبدأ بمعلومة مبتورة وغير دقيقة، ويُتعرض الخبر المنضمن فيها للتلوين لأن جميع الأخبار المنقوله على الألسن تتعرض للتلوين، وحتى في غياب التوتر والقلق فإن التقارير المبنية على الحقائق تميل لأن تصبح أقصر وأبسط أثناء نقلها.

ويجري تشويه المحتوى بناء على النزاعات الشخصية أو الثقافية أو بناء على الأفكار المسبقة وهو ما يمكن تفسيره في ضوء نظرية بارتلت في طبيعة عمل الذاكرة (والتي تقول بأننا لا نحفظ بالأحداث في ذاكرتنا ككل متكامل وإنما كأجزاء مقطعة نعي لملئها عند استرجاعها فتتعرض لأشكال مختلفة من التحريف) (انظر Gross and McClellan, 1997). (Broom and Selznick, 1977).

العدوى الاجتماعية Social Contagion

تشير العدوى الاجتماعية إلى عملية نفسية يؤثر فيها الأفراد على بعضهم البعض أثناء وجودهم في الجماعة فتصاعد حدة الانفعالات كما تصاعد سرعة الاستجابة (Horton and Hunt, 1976). فعندما تُستثار الجموع، تحتاج لأن تفوح انفعالاتها الجياشة فتندفع إلى السلوك بالاتجاه الذي يوحي إليها به حين يكون ذلك الاتجاه متلقاً مع دوافعها. وكمثال على ذلك أدت حالة الهيجان التي صاحبت عملية شنق أحد الزنوج في إحدى المدن الأمريكية، إبان فترة التوتر العنصري، إلى محاولة شنق عمدة المدينة عندما حاول حماية ذلك الرجل، وكاد الغوغاء أن ينجحوا في ذلك (Horton and Hunt, 1976).

اللامشخصية (في التعامل) Impersonality

تتمثل حادثة القتل المشار إليها في الإيضاح رقم (٤-٤) نموذجاً لسلوك لا يتم التعامل فيه مع الآخر ككيان شخصي - إنساني مستقل.